مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 12 عدد: 1، مارس 2023
ص: 511 - 521 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

عتبة العنونة بين التّمرّد النّسوي وخلخلة النّظام الأبوي في رواية شطحات أنثى لـ: عيون ليلى

The threshold of the address between feminist rebellion and the disruption of the patriarchal system in the novel "Shatahat Female" by: Oyoun Laila.

د. سناء بوختاش *
Sana boukhtache
مخبر تحليل الخطاب.
جامعة مولود معمري - تيزي وزو / الجزائر
University Mouloud Mammeri - Tizi Ouzou / Algeria
sanasena40@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/08/02	تاريخ القبول: 2022/11/14	تاريخ النشر: 2023/03/02

مُلخّص البحث

يعدّ العنوان من أهم العتبات النّصيّة التي سعت السّيمياء إلى الاهتمام به، باعتباره مفتاحا أساسيّا يتسلّح به القارئ للولوج إلى عالم النّص قصد استنطاقه وتأويله، فهو بنية عامّة قابلة للتّحليل والشّرح تبحث في الأعماق من أجل كشف مقاصد ومضامين النّص، وتعطيه دلالات موازية للمعنى الحقيقي، وعليه هدفت هذه الدّراسة إلى تسليط الضّوء على القراءة في الأعمال الرّوائيّة النّسائيّة الجزائريّة المعاصرة، والتي اخترنا منها رواية "شطحات أنثى" لـ: عيون ليلى نحاول من خلالها أن نوضّح كيف انتقلت العنونة من التّركيز على الصّورة اللّغويّة والبنية الحرفيّة التّقريريّة المباشرة إلى الصّورة البصريّة ذات الوظائف الدّلاليّة المتماشيّة مع التّحديث، إذن السّؤال الذي نطرحه هنا ما هي الدّلالات التي يحملها هذا العنوان؟ وهل كان منسجما مع مضمون النّص؟.

الكلمات المفتاح : عتبة - عنوان – نسوي – تمرّد – خلخلة – أبوي.

Abstract :

The title is one of the most important textual thresholds that semiotics sought to pay attention to, as it is a basic key by which the reader is armed to enter the world of the text in order to interrogate and interpret it. This study aimed to shed light on reading in contemporary Algerian women's fictional works, from which we chose the novel "Shahat Female" by: Oyoun Laila, through which we try to clarify how the title shifted from focusing on the linguistic image and the direct literal-report structure to the visual semantic functions. in line with the modernization, So the question we ask here is what are the connotations of this title? Was it consistent with the content of the text?

Keywords: Threshold - Title - Feminist - Rebellion - Dislocation - Paternal.

* د. سناء بوختاش sanasena40@gmail.com

مقدمة:

منذ أكثر من نصف قرن من الزّمن والدّراسات السّيميائيّة شهدت رواجا في كافّة المجالات حتّى طغت المؤلّفات التي تبحث في العلامة وأصنافها على غيرها من الأبحاث، وذلك بسبب شموليّة هذا العلم الذي بات من الممكن بواسطته التّطرّق لأيّ مجال من زاوية سيميائيّة، فظهرت مجالات وأبحاث في اللّغة والبلاغة وعلم الجمال وغيرها من العلوم تعتمد عليه، وهذا يوحي بأنّه أصبح علما راسخا قائما على تعريفات وأصول وقواعد معترف بها يمكن تطبيقها بشكل نافع في أي مجال من مجالات العلامات، وكان العنوان من أهم العتبات النّصيّة التي سعت السّيمياء إلى الاهتمام به، باعتباره مفتاحا أساسيّا يتسلّح به القارئ للولوج إلى عالم النّص قصد استنطاقه وتأويله.

بناء على ذلك يكون العنوان هو النّص الموازي الذي يواجه القارئ أثناء تفاعله مع النّص الإبداعي كونه ليس مجرّد مادّة إعلانيّة فقط، بل هو خطاب إبداعي يحمل في أعماقه فكرة ورسالة تختزل مضمون النّص مع مراعاة الدّقة في نسجه من أجل إغراء القارئ، وهذا يتطلّب جهدا من المبدع باعتبار العنوان بؤرة النّص ودلالته الكبرى التي يتمحور حولها.

فالعنوان بنية عامّة قابلة للتّحليل والشّرح تبحث في الأعماق من أجل كشف مقاصد ومضامين النّص، وتعطيه دلالات موازيّة للمعنى الحقيقي، وعليه سنحاول في هذا المقام أن نسلّط الضّوء على القراءة في الأعمال الرّوائيّة النّسائيّة الجزائريّة المعاصرة، والتي اخترنا منها رواية **"شطحات أنثى" لـ: عيون ليلى** نحاول من خلالها أن نوضّح كيف انتقلت العنونة من التّركيز على الصّورة اللّغويّة والبنية الحرفيّة التقريريّة المباشرة إلى الصّورة البصريّة ذات الوظائف الدّلاليّة المتماشيّة مع التّحديث .

إذن السّؤال الذي نطرحه ما هي الدّلالات التي يحملها هذا العنوان؟ وهل كان منسجما مع مضمون النّص؟

عيون ليلى أستاذة في العلوم الوثائقيّة من وهران عملت في الصّحافة سابقا، انتقلت إلى التّدريس منذ عام **2010**، لها كتابات في بعض الخواطر الشّعريّة، أمّا الجانب السّردي فكانت روايتها **"شطحات أنثى"** أوّل ما كتبت وهي رواية تبحث في الهويّة عن طريق تجسيد معاناة الأنثى الخاصّة واكتشاف الذّات وتحرير الدّاخل من ردود الأفعال.

تحكي الرّواية عن الصّبيّة آمال التي عاشت العديد من الانكسارات منذ طفولتها، حين كانت أول مآسيها لامبالاة والدها "عبد الصمد الهبري" بها، وثانيها حبّها لابن عمّتها الذي فجّر نفسه في زمن العشريّة

السّوداء نتيجة اعتقاداته الخاطئة، وأخيرا اكتشافها بأنّها ابنة غير شرعيّة ولدت نتيجة خطأ ارتكبته والدتها مع عبد المؤمن البيدري والدها البيولوجي.

أولا: العنوان "شطحات أنثى" وفضح الهامش النّسوي

1/ دلالة العنوان:

يعدّ العنوان «نظاما سيميائيّا ذا أبعاد دلاليّة وأخرى رمزيّة تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فك شفراته الرّامزة»[1]، وعنوان "شطحات أنثى" من قرأه للوهلة الأولى يعتقد أنّ عيون ليلى كتبت رواية كلاسيكيّة تقليديّة بعيدة عن التّجديد والتّجريب، لأنّ العنوان من النّاحيّة التركيبيّة لم يحتاج إلى أي تأويل أو أي قراءة ثانيّة، فعندما نقول "شطحات أنثى" نجد التّركيب سليما لم يحدث عليه أيّ انزياح أو مجاز يجعلنا نحسّ بأنّها خرجت من الأطر التّقليديّة، فكأنّها تحكي في المتن عن أنواع الرّقص التي تؤديها الأنثى.

والمتمعّن في المتن الحكائي جيّدا يجد أنّ الرّوائيّة لم تقصد هذا أبدا، فمدلول كلمة الشّطحات خرج من معناه المعجمي إلى المعنى الإيحائي، حيث أصبح لا يدلّ على الرّقص وإنّما يدلّ على الحركة وهذه الحركة لا تعدو أن تكون مؤشّرا دال على ما تحيل إليه هذه اللّفظة من تفرّعات دلاليّة تحمل في مضامينها معنى للاّثبات وللاّستقرار، والاضطراب، وللاّنسجام.

وعلى هذا الأساس إذا كان العنوان "شطحات أنثى" من النّاحيّة التّركيبيّة مستوحى من العنوان التّقليدي الذي يتّصف بالمباشرة والتّقريريّة والبساطة، فإنّه من النّاحيّة الوظيفيّة والدّلاليّة كان قريبا من العنوان الحداثي الذي يحتاج إلى قراءة ثانيّة وتأويل لمعانيه، لأنّه عنوان لم يكن يقصد به الرّقص الذي تؤدّيه الأنثى، وإنّما هو عنوان يبحث في دلالات أخرى تخصّ معاناة الأنثى في المجتمع الذي هضم حقّها، لكن يا ترى فيما تتمثّل معاناة الأنثى في هذه الرّواية؟ ولماذا اختارت عيون ليلى هذا العنوان بالضّبط؟.

العنوان "شطحات أنثى" يتكوّن من دالين هما "شطحات" و"أنثى" تجمع بينهما الإضافة (المضاف والمضاف إليه)، وهذه الإضافة هي من ألغت الحدود بينهما حتّى أصبحا دالاّ واحدا، كون الشّطحات غالبا ما كانت تقترن بالأنثى، ولفظة الأنثى وجودها في العناوين يعكس ما يدور داخل المتن، وهو أنّ المتن يحكي عن الأنثى وانشغالاتها ومدى تمكّنها من إثبات وجودها وتجاوزها لذلك السيّاج الذي حوّطها به المجتمع الذّكوري.

كما نجد في هذا العنوان غيابا صياغيّا وعلى الأرجح هو المبتدأ، فالأصل في العنوان "هذه شطحات أنثى"، واسم الإشارة "هذه" له وظيفة حيويّة أدخلت العنوان في زئبقيّة الطّرح والتّساؤل عن أي شطحات أنثى تتحدّث الرّوائيّة؟ فوجدنا بعد الاطلاع على مضمون الرّواية أنّ الشّطحات التي تتحدّث عنها عيون ليلى تعكس كل تلك التّقلبات التي تعيشها الأنثى التي شغلت حيّز روايتها.

ويتجلّى ذلك في قول بطلة الرّواية آمال وهي تناجي الخلاص من هذا الحزن «منهك هذا الرّجاء حينما تتلقّفه أذرع البوليسية وهي ترسم معاناتي بدقّة عدسة تصوير رقميّة.. بل تتجاوز ذلك إلى التّدخول في لحمة الأشياء التي قد تمنح صبيّة مجرّد شعور بائس بالفرح، بالأمل، بالحبور. صعب أن يمنحك أحدهم طردا من

الحزن ملفوفا كهديّة»[2]، يعني ذلك أنّ الأنثى التي تتحدّث عنها الرّوائية هي الأنثى الواقعة تحت هيمنة نسق ثقافي إيديولوجي ما فرضته ظروف اجتماعية محدّدة، تجعلنا نطرح تساؤلات عدّة في غاية الأهميّة: ما هي الظروف التي تعيشها الأنثى في هذه الرّواية؟ ومن هذه الأنثى؟ ولماذا قالت أنثى ولم تذكر اسمها؟

2/ العنوان وسلطة الذّات:

جاء العنوان "شطحات أنثى" عاكسا لفضاء تقني ترميزي أكثر ممّا هو فضاء إنشائي، لما يحمله من شفرات تحتاج إلى التّفكيك لمقاربة واقع الأنثى المهمّشة، وتعميق الوعي المعرفي الجمالي بحقيقة المرأة في العالم العربي، وهي نتيجة حتميّة اعتاد القارئ الوصول إليها في معظم المتون الرّوايّة التي تكتبها المرأة حيث يتم فيها التّمركز حول الذّات، والتّمركز حول الذّات في الرّواية النّسائيّة يعني الكتابة عن انشغالات المرأة وهمومها.

وعليه الأنثى الحاضرة في المتن، والتي كانت تمثّل العنوان هي الشّخصيّة الرئيسيّة التي تتمركز حولها الأحداث، كما هي عصب الرّواية التي كانت تعمل على كسر النّسق المهيمن، وكسب سلطة الذّات للذات نفسها من خلال الهيمنة على القارئ باعتبارها أنثى مؤسّسة للفعل ومنجزه، وبوصفها تمثّل القيمة المهيمنة في الرّواية كلّها، ويتّضح ذلك في قول الرّوائيّة على لسان بطلة روايتها «وكلّ النّهايات المعلّقة تصنع في داخلي بدائل الخذلان.. ووجعي الطفولي يشي أنّ الحزن قد حجز له مقعدا في الصّفوف المتقدّمة من الخواء.. في النّهاية خاوية سمائي من كلّ الأشياء الصغيرة التي تأشّر أنّك والدي وكفى.. في ديانتي أردتك ربّا أركع تحت قداسيّة نواميسه.. أرتل بسخاء تراتيل طقوسه.. بكلّ بساطة اشتهيت أن تكون والدي»[3].

هذه العبارات التّابعة من الذّات تمثل رد فعل الأنثى آمال على ممارسة التّجاهل الذي قام به والدها ضدّها، فالذّات آمال حاولت بهذه الكلمات التخفيف عن وجعها مثلما حاولت عيون ليلى بالكتابة المطالبة بحقوق كل أنثى مهمّشة، وسعت إلى إثبات الوجود الفعلي للذّات الأنثوية في الوسط الاجتماعي مثلها مثل الرّجل .

أمّا بالنّسبة لعدم ذكر اسم محدّد للأنثى في العنوان يرجع إلى أنّ الرّوائيّة كان هدفها من توظيفها كلمة أنثى، أنّها تريد التعبير عن الظّلم الذي وقع على كل ذات أنثوية عانت القهر بسبب الرّجل، وفي المتن اختارت أن يكون اسمها "آمال" لأن اسم آمال يعني الطموح والرغبة في تحقيق شيء ما، فهو دلالة على الرجاء والتّمني، وهو ما كانت تطلبه بطلة الرواية آمال من والدها الذي مارس عليها الظلم والتّجاهل، وهذا سيتّضح جليّا في الاستشهادات التي سيتم تحليلها، لقد كانت آمال تطلب الرجاء من والدها أن ينصفها، لكن والدها في كل مرة كان يقهرها.

إذن العنوان "شطحات أنثى" جاء «تجميع مكثف لدلالات النّص، إن البؤرة قد يستقطبها العنوان ثم يتم ترددها في مقاطع النّص، فتأتي تلك المقاطع تمطيطا للعنوان وتقليبا له في صورة مختلفة»[4]. لكن لو كان العنوان "شطحات فراشة" مثلا لكان أبلغ، حيث تترك للقارئ سرّ التّقدير للدّوال الخفيّة والتّائمة في النّص،

وبهذا تكون قد نجحت في جذب القارئ وتشويقه لطرح الأسئلة التي لا يجد لها إجابات إلاّ إذا دخل عالم النّص، وهنا تكون قد نجحت مرّة ثانيّة حين أدخلت القارئ في كوامن نصّها دون إرغامه.

3/ الشطحات والبوح عن المسكوت عنه:

بناء على ما تقدّم يكون العنوان "شطحات أنثى" عنوان موفق إلى حدّ بعيد، لأنّ الشّطحات التي تتحدّث عنها عيون ليلى شبيهة بتلك الشّطحات التي يتحدّث عنها العرفاء والتي يقصدون بها البوح بما يجب أن يبقى مكتوما، أي الجهر بأسرارهم فمن كشف النّقاب عن تلك الأسرار (وحدة الموجود) أو علاقتهم بالله قالوا بأنّه "شطح" فقد باح بسرّ لا ينبغي البوح به ويتم معاقبته لكشف ذلك السّر[5]، عيون ليلى هي الأخرى عندما اختارت لفظة شطحات لتكون مدلولا يعكس مضمون روايتها كان مبتغاها وضعها كمعادل موضوعي للقهر والظّلم والتّجاهل والصّمت إضافة إلى البوح بما كان مسكوتا عنه.

تجلّى ذلك المعنى في أنّ بطلة الرّواية "آمال" عاشت لمدة ست وعشرون سنة حالة يأس وحرمان وتجاهل من طرف والدها "عبد الصّمد الهبري" الذي كانت تعتقد أنّه والدها الذي تحمل دمه في جسدها، ويتجلّى ذلك في الرّواية في كثير من المقاطع نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قولها: «صعب أن تدرك أنّك تخسر أدنى حقوقك الطّبيعيّة في معركة فرضت عليك.. طرفاها غير متعادلين أبدا.. والد وابنته ..لا أدري؟ ولكنني لم أتصوّر نفسي ولو للحظة واحدة أن أكون طرفا في نزاع مع والدي»[6].

يتّضح لنا من خلال هذا المقطع أنّ البطلة "آمال" تعيش حالة صراع مع والدها، لكن هذا الصّراع لا تدري ما سببه، فقط ما تعرفه هو أنّها كادت تتسبّب في موت أمّها قبل ولادتها، وكان من المفترض أن تجهضها لكن أمّها تمسّكت بها وشاء القدر أن تعيش الأم والابنة معا، فلماذا يبقى والدها منزعجا منها إذا كان هذا هو السّبب؟ .

لكن ونحن نتتبع أحداث الرّواية نجد أنّ هناك سر خطير تم حجبه والصّمت عنه، هو أنّ آمال ابنة لرجل آخر يدعى "عبد المؤمن البيدري" يقطن في قرية بيدر[7]، لم تستطع الأم أن تكشف هذا السّر إلاّ بعد محاولة آمال الانتحار بسبب التّجاهل المبالغ فيه من طرف والدها الذي ربّاها ولم يحضنها يوما هو "عبد الصمد الهبري"[8].

هنا حدث البوح الشّبيه ببوح العرفاء بأسرار عقيدتهم، لكن هذا البوح كان فيه معاتبة وراحة في الوقت نفسه، لأنّ آمال من جهة عاتبت والدتها التي تركتها لمدّة ست وعشرون ربيعا وهي تعاني القهر والظّلم والتّجاهل[9]، ومن جهة أخرى هي «سعيدة بهذا الحزن الممطر..» [10]، لأنّه هو من منحها انتمائها وهويّتها وحقيقة وجودها، ويتجلّى ذلك في قولها وهي تلتقط أنفاسها بعد كلّ هذا الشّقاء «أخيرا واجهني التّد للتّد.. رجلا لامرأة.. لطالما بعث إليّ بإشاراته التي لم أفهمها.. نعم أنا مستعدّة للمواجهة.. مستعدّة لحكم القضاء.. مستعدّة أن أكتم أنفاس الآه.. الزّمن ليس انتقالا إلى الوراء.. هو نهر يتدفّق نحو الأمام.. أسفري لي يا حقيقة عن وجهك.. فما عدت أخاف من أحد..» [11].

4/ كسر أفق التوقّع:

يتّضح أنّ العنوان "شطحات أنثى" جاء مؤسّس لصوت الأنثى آمال والإعلان عن الحب المفقود بينها كابنة وبين والدها الظّالم، ما يظهر لنا ما يسمّى بصراع المتناقضات/صراع الذّات آمال مع الآخر والدها، لتصبح من علاقة اتصال كما نعرفه عن هذه العلاقة إلى علاقة انفصال كسرت النّسق الاجتماعي المألوف، فهذا العنوان جاء رمزا دالا على حزن الأنثى ويأسها حينا، وحسرتها ومعاناتها حينا آخر، وحافزا لرفضها وتمرّدها على السّلطة الأبويّة التي عملت على ظلمها وقمع حريتها من خلال مجابهتها لواقعها ورفع صوتها أمامه حينا ثالثا.

من هنا يتبين لنا أنّ الرّوائيّة كانت تهدف إلى كسر أفق توقّع القارئ الثابت أمام حميميّة الأبوة، لتظهر العلاقة الأبويّة غير المتوقّعة، وبهذا يكون القارئ بحاجة إلى إعادة النّظر حول هذه العلاقة القيميّة الثابتة، ليخلق تصورات جديدة مبنيّة على التّصريح غير المتوقع من الكاتبة، والذي كانت تهدف به إلى إشراك القارئ في منجزها النّصي، ولتأكّد على الشّرخ الحاصل بين آمال ووالدها .

ويتجلّى ذلك أيضا في قول "آمال" «لم أكن لأذكر قبل هذه الحادثة علاقتي بوالدي.. النّظر إلى الوراء يوما كان ليجعلني أخوض في نسبيّة الاحتمالات.. بحكم سني كانت العتمة حاجبا يمنع عني مخاطبة العقل، لم أكن لأشكّك ولو للحظة واحدة أنّ هذا الذي أسمّي ابنته لا يفيض تجاهي حبّا وحنانا!!»[12]، الرّوائيّة من خلال هذا الصّراع القائم بين الذّات (آمال) والآخر(والدها)، كانت تودّ أن تضع القارئ أمام واقع الأنثى المهمّشة، والمظلومة، والثائرة، على الوضع المأساوي، الذي يفرضه عليها الرّجل المتسلّط والمجتمع، فهي كسرت أفق التّوقع حين خرجت عن الإطار المألوف والمتمثّل في علاقة الأبوة والحنان، إلى الإطار المحظور والمتمثّل في علاقة التّجاهل والظّلم والقسوة.

القارئ كان متوقعا أنّ العلاقة بين الأب والابنة هي علاقة حب وحنان وعطف، لكنّه يفاجأ بحدوث العكس، وعليه البناء الجديد لهذه العاطفة أصبح يندّد بعلاقة منكسرة وغير متوقّعة أن تكون من الأب الذي رسم له العرف والمجتمع صورة مواتيّة للحنان.

ثانيا: تشكّل الذّات الكاتبة (عيون ليلى) في الملفوظ النّصي

1/ الأنا الكاتبة:

بعد الحديث عن العنوان وماهيته كان من الضروري أن نتحدث عن اسم الكاتبة الفعليّة **"عيون ليلى"** المثبت على الغلاف، والذي يشكّل حقيقة لـ "الأنا" الكاتبة، وهو ضمير فعلي يقع خارج النّص ويتودّد إليه، ويحوم حوله دلاليّا ولا يقع فيه، لأنّه يمثل الحدّ الفاصل بين الأنا الكاتبة التي تمثّل الشّخص المادي الذي يتحمّل مسؤولية النّص الفعليّة، والأنا الرّوائيّة التي تمثّل مخلوقات خياليّة تنسجها الأنا الكاتبة من أجل خلق نص متعدّد الشخصيّات والحوارات والآراء.

فالأنا الرّوائيّة أو «السارد ليس أبدا الكاتب... ولكنّه دور مخلق ومتبنى من طرف الكاتب... فهو شخصيّة متخيّلة –أو كائن من ورق– شأنه في ذلك شأن باقي الشّخصيّات الرّوائيّة الأخرى يتوسّل بها

المؤلف، وهو يؤسس عمله الحكائي لينوب عنه في سرد المحكي، وتمرير خطابه الإيديولوجي، وأيضا ممارسة لعبة الإيهام بواقعيّة ما يرى»[13].

بناء على ذلك يعتبر النّص فضاء متخيّلا، وموضوعا محكيّا، وقصة منتظمة، وتاريخا يستعاد داخل الفعل السّردي، منسوج من طرف الذّات الكاتبة، لتأتي بعدها الذّات السّاردة كي تعيد تشكيله سرديّا، وتعيد تنظيمه حبكيّا، مادامت الحبكة هي الوسيط الذي يعيد تنظيم الأحداث كما يرى "بول ريكور Paul - Ricoeur" «أرى في الحبكة التي نختلقها الوسيط المميّز الذي به نعيد تشكيل تجاربنا الزّمنيّة»[14].

2/ بين الأنا الكاتبة والأنا الروائية:

لكن هناك من يخلط بين "الأنا الكاتبة" و"الأنا الرّوائيّة" مثلما فعلت "يمنى العيد" في كتابها (تقنيّات السّرد الرّوائي في ضوء المنهج البنيوي)، حين كانت توظّف مصطلح "الرّاوي" و"الكاتب الرّاوي" ليدلاّ على مفهوم واحد، ووجّه لها "نجيب العامي" نقدا عندما لم تحدّد مفهوم كل من "الرّاوي" و"الكاتب الراوي " فكأنهما مصطلحين مختلفين لمفهوم واحد[15].

وفي رواية **"شطحات أنثى"** نلاحظ أنّه في كثير من الأحيان ما يحدث لدينا هذا الخلط حين نحس بأنّ "الأنا الكاتبة" (عيون ليلى) هي نفسها "الأنا الروائيّة" (آمال)، وهو ما يمكن أن ندرجه ضمن ما قالته "جوليا كريستيفا" عن المؤلف بأنّه وهو في حوار مع النّص ينتقل ضمنيّا من الذّات الكاتبة التي تحرّر النّص، إلى الذّات السّاردة التي تلعب دور الشخصيّات والحوارات والأدوار التي يشترط تواجدها بداخل النّص[16]، وعليه اسم الكاتبة جاء هنا يمثّل اسقاطا للخارجي/الثقافي، على الدّاخلي/الرّوائي، باعتباره هو ممثل العمل الإبداعي ومنتجه، وخالق العمل التّخيلي الذي يبني من خلاله المكوّنات السّردية التي تمنح للنّص بعده الجمالي .

ثالثا: تشظي الذّات ونمطيّة المجتمع

1/ استنطاق الألم والوجع:

بناء على ما تقدّم يتبيّن لنا أنّ "الشّطح" الذي تتحدّث عنه الرّوائيّة في العنوان هو معادل رمزي للصّمت الذي فرضته علاقات قيميّة على مجتمع منغلق يقمع حريّة المرأة في فعل ما تشاء، كما يمثّل تشظي الذّات ونمطيّة المجتمع الذي يحكم على الأنثى بالصمت الذي يجعلها تدخل في صراع نفسي مع ذاتها بشأن البوح والفضح أو البقاء صامتة إلى الموت، وهو ما تجلّى في قول آمال وهي في حالة تضارب مع ذاكرتها التي تعيش حالة صراع بين الحلم واليقظة قبل أن تخطّها وتجسّدها في رسالة توجّهها إلى والدها «وهناك جلست على مكتبي أخطّ الرّسالة.. لست أدري هل ستنصفني الكلمات أم ستذلّني.. كل شيء كئيب في داخلي ..!! كيف لي أن أعلل انتحاري؟؟ أنا التي كنت أؤمن بأنّ الرّضا بالقدر عبادة.. أنا التي كنت أتأفّف من كلّ الذين يضعون حدّا لحياتهم وكأنّهم يحدّون الله.. أمعقول أنّني سأخرج من الدّنيا كافرة؟؟؟ عن ماذا سأكتب؟ وماذا سأخلي.. في النّهاية لا أجد في حياتي غير الألم.. تركت يديّ حرتين في اختيار بعض من الكلمات.. فكلّ لغة الضّاد لم تكن لتجسّد حجم الآه في كوامني!!»[17].

من خلال هذا الاستشهاد يتّضح لنا أنّ البطلة آمال تستنطق الألم والوجع من أعماق نفسها بحثا عن غد مشرق وبعض من الأمل الذي يحيل عليه اسمها، وهو ما يمكن أن نسميّه أيضا بكلام التنفس للتنفس الذي نعني به التّماهي المطلق بين المتكلم وأناه، فآمال هنا تتماهى مع أناها كي تعين نفسها عن المعاناة التي اجتاحت كوامنها، لتكون فيما بعد الكتابة سلاحها الذي تجاوزت به أناها الدّاخليّة لتصرّح وتبوح علانيّة من خلال تلك الرّسالة التي كتبتها لوالدها دون تحفظ عن معاناتها ورفضها الصمّت الذي دام ست وعشرون (26) سنة، تفضح فيها كلّ أوجاعها، وآلامها، التي تسبّب فيها قبل أن تنتحر، حين تقول فيها «إليك يا الهبري عبد الصمد ..

أحتاج اليوم أن أبكي..

بعدد الأيّام التي عشت.. بعدد الدّعوات التي رتلت.. بعدد الصلوات التي صليت.. وإني أقول يا سي الهبري إنّي كرهت أن أعيش وأنت في الدّنيا تسمى أبي..

نعم أكرهك وأكره أنّك والدي.. نعم أكرهك ولست أتمرّد على القضاء.. وإنّما أكره أن أكون أنا منك.. قطعة من روحك.. أن تصنع أنت بالذّات توحد بدايتي ودهشة نهايتي..

غرباء كنّا يا سي الهبري.. غرباء والاسم واحد.. رضينا أو أبينا انطفأنا ولا أدري لِمَا؟؟؟ [...] واثقة أنني سأكون سعيدة هناك.. فقد ألتقي عمر.. وقد ألتقي جدي.. ويومها فقط سأعيش بعضا من الوقت.. بعضا من الحياة.. لأنّك لن تكون هناك..

أكثر ما يثلج صدري أنّني سأخرج من حياتك وأنا حاملة اسما غير اسمك..

اليوم سأترك لك الدّنيا وسألتحف الثرى لتهنأ من بعدي.. غير آسفة إلاّ لما قد يحدث لوالدتي ولمحمود من بعدي.. ولكن أقسم أنّنا سنلتقي وسينصفني التراب رغما عنك. آمال»[18].

عمدت الرّوائيّة في هذه الرّسالة إلى الإفصاح عن مواجهة آمال لوالدها، الذي كان يمارس عليها التّجاهل والكره والاحتقار، فهذه الرّسالة هي التي منحت لها كل الحق في إخراج أوجاعها حتى ترتاح، وفي موضع آخر نجد الأم سعاد ترمي إلى آمال برسالة القدر تكشف فيها عن السّر الذي أخفته مدّة ست وعشرون سنة، وهو أنّها ابنة لثمرة حب لم تكتمل والدها يدعى عبد المؤمن البيدري، وهي التي جاءت بما يلي: «حبيبتي سعاد

كيف لي أن أفرغ هذا الألم من أضلعي؟.. من تجاويفي؟.. من الآه التي تتأوه من الألم؟.. كلّ نبض لا يدقّ إلا على هواك.. يا سعادي [...] لماذا يشمّعون حبّنا يا سعاد؟ لماذا عنه يقولون كفر؟.. متى كان الفقر تهمة؟..[...] البذرة التي زرعتها فيك يا سعاد أريدها أن تكبر.. أن تلقي بظلالها.. أن ترمي بزهورها وتثمر.. قولي لهم أريد أن أغيّر مجر النّهر.. دعوا ثمرتي تكبر.. دعونا نمتص الرّحيق الأخير قبل أن يجف العمر..

أنتظر منك جوابا يشفيني.. يا ملهمتي.. لا الكرى يعرف عنواني ولا يستوطن قلبي غير هواك يا سعاد.. عبد المؤمن البيدري»[19]، كانت هذه الرّسالة هي الأخرى أداة البوح والكشف التي أجازت فيها الأم كل ما حدث قبل ست وعشرون سنة، وكيف حدث أن تخلت عن محبّها، وتزوجت بعبد الصمد الهبري.

2/ جماليات الكشف والفضح:

لقد كان استعمال الرّوائيّة للجنس الرّسلي يهدف إلى استغلال شكله الكتابي وبنياته السّرديّة للحصول على خطاب روائي متعدّد الأصوات، وخلق فضاء تناصي يفصح عن مواجهة الذّات آمال في اتّصالها بمدار الحياة اليوميّة المليئة بالمآسي والأوجاع.

إذن العنوان "شطحات أنثى" بتفرّعاته الرّمزيّة المختلفة «لا يكتسب معناه إلاّ بعد قراءة الرّواية فقراءة الرّواية [...] تدفع القارئ إلى المقارنة بين المعنى المقدّر في البداية والمعنى المستخلص في النّهاية من أجل اكتشاف المزيد من إمكانات الدّلالة»[20]، وعليه العنوان هنا يعتمد جماليّات الكشف والفضح أداة وغاية، لأنّ كل التّقلبات والأوجاع والقسوة التي تعتري النّص الأنثوي الذي بين أيدينا يمكن أن تكون هي مآسي وانكسارات الكثير من الأسر في الوطن العربي التي تعيش حالة يأس جماعي بسبب الأوضاع المزرية نتيجة الفقر والتشرد الذي خلّف الكثير من الآفات الاجتماعية، فالأنثى المتشظيّة الهويّة هنا تمثّل الأسر المغتصبة والمنكوبة التي سلبت منها الحياة المستقرة نتيجة الخلافات وانهيار العلاقات في الأسرة.

كأنّ هذا العنوان يجسّد انفصال الأسر العربية عن ذاتها، لكن مع نهاية الرّواية نجد هناك بصيص أمل حين اكتشفت البطلة آمال هويّتها الحقيقيّة وتقبّل والدها لها، وهو ما حضر في قول آمال وهي بين أحضان والدها «ولكن والدي حملق فيّ.. بدأ يهزّ برأسه يمنة ويسرة؟!

من أين خرجتي يا حوريتي؟! [...] قلت - والجفاء استوطن ثغري [...] أنت.. بابا.. بصوت مبحوح.. استجمعت فيه ستا وعشرين سنة من الشّوق والانتظار والحنين»[21]، هذه النّهاية توحي إلى أنّ هذا التّدهور الذي تشهده العلاقات الأسرية سيأتي يوم ويزول وتعود العلاقات إلى طبيعتها، مثلما حدث مع آمال بطلة الرّواية.

الخاتمة:

بناء على ما تقدّم نكتشف أنّ عنوان رواية "شطحات أنثى" لـ عيون ليلى:

- جاء متمرّدا على بنية العنوان التقليدي الكلاسيكي، وعلى ثقافة المجتمع الجزائري الذي يرفض الخدش في القيم الإنسانيّة، حين قوّضت الرّوائيّة المعنى المعجمي للشّطح وخلخلت ما هو مألوف بكشفها عن المسكوت عنه المتمثّل في بوح الأنثى عن تهميشها وعن هويّتها التي ظلّت ممزّقة ومتشظيّة بسبب السّلطة الذكوريّة التي ظلمتها.

- العنوان يسير مع النّص في خط واحد يكمّلان بعضهما لأنهما مثّلا أوجاع المجتمع النّسائي، حيث تطرّقت فيها الرّوائية إلى قضيّة الهويّة المتشظيّة والقهر والصّمت الذي كانت تعاني منه الأنثى أمام سلطة الرّجل التي اقتلع منها حقّها في العيش والإبداع بحرّية.

- اشتغل العنوان على قيمة الإغراء والمخاتلة في تحقيق الدّلالات الموحيّة التي يعج بها النص، حيث تأسّس العنوان على ذات أنثوية فاعلة، وكانت آمال رمزا لكل امرأة عانت القهر والتّسلّط.

- أمّا بالنّسبة للّغة التي كتبت بها عيون ليلى فهي لغة قامت على كسر أفق توقع القارئ، إضافة إلى استعمالها للأسلوب السّاخر المتذمّر بغرض الوصول بالعنوان والنّص إلى مبتغياهما، وبدافع تعميق الإحساس لدى القارئ بالقضايا التي شغلت النّص الرّوائي النّسائي.

وعليه نلاحظ أنّ العنوان في رواية "شطحات أنثى" بجميع تفرّعاته يشكل جهاز تحديث يساعد القارئ على الكشف عن الإشكالات التي يطرحها النّص من منطلق العلاقات التي تنشأ بين العنوان والنّص، غير أنّ دراسة العنوان لوحده غير كافيّة في عمليّة كشف القارئ عن الدّلالات الخفيّة للنّص، لأنّ الدّراسة الدّقيقة تتطلّب الاقتراب من المكون الخطابي المقصود من أجل ربط مضمونه مع العنوان الذي يحمله من أجل الإحاطة بالدّلالات الجوهريّة التي تخرق النّص وتمنحه التّماسك الدّلالي.

هوامش

[1] بسام قطوس، سيمياء العنوان، 2001، ط1، وزارة الثقافة (عمان، الأردن)، ص 12.

[2] ليلى عيون، شطحات أنثى، 2016، ط1، دار الفارابي (بيروت، لبنان)، ص 15.

[3] الرواية، ص 28.

[4] بشير تاوريريت، الحقيقة الشعرية(على ضوء المناهج النقدية المعاصرة والنظريات الشعرية دراسة في الأصول والمفاهيم) 2010، ط1، علم الكتب الحديث للنشر والتوزيع (إربد، الأردن)، ص134.

[5] البراءة والولاية bara'a and wilayah، "ما معنى الشطح عند العرفاء؟"، 17 ماي 2013، 04:45سا https://m.facebook.com/، 14 فيفري 2017، 23:23 سا.

[6] ليلى عيون، شطحات أنثى، ص16 – 17.

[7] ينظر، الرواية، ص 127.

[8] ينظر، الرواية، ص 120.

[9] ينظر، الرواية، ص 129.

[10] ينظر، الرواية، ص 130.

[11] الرواية، ص 136.

[12] الرواية، ص 14-15.

[13] عبد العالي بوطيب، "مفهوم الرؤيّة السرديّة في الخطاب الروائي"، (1992)، مجلة فصول، مصر، ع4، ص 68 – 69.

[14] حاتم الورفلي، بول ريكور...الهوية والسرد، تق: أحمد عبد الحليم عطية، (2009)، (د.ط)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت)، ص59.

[15] ينظر، محمد نجيب العمامي، الراوي في السرد العربي المعاصر (رواية الثمانينات في تونس)، (2001)، ط1، دار محمد الحامي (سوسة، تونس)، ص 8 – 9.

[16] ينظر، محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية المعاصرة (1976 – 1986)، (2003)، ط1، دار صامد (تونس) ص 248.

[17] الرواية، ص 118.

[18] الرواية، ص 102-103.

[19] الرواية، ص 146-147.

[20] لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرّواية (عربي – انجليزي – فرنسي)، (2002)، ط1، لبنان ناشرون، النّهار للنشر (بيروت)، ص 125 – 126.

[21] الرواية، ص 146-147.

قائمة المصادر والمراجع:

(1) الكتب:

- بسام قطوس، سيمياء العنوان، 2001، ط1، وزارة الثقافة (عمان، الأردن).
- بشير تاوريريت، الحقيقة الشعرية(على ضوء المناهج النقدية المعاصرة والنظريات الشعرية دراسة في الأصول والمفاهيم) 2010، ط1، علم الكتب الحديث للنشر والتوزيع (إربد، الأردن).
- حاتم الورفلي، بول ريكور...الهوية والسرد، تق: أحمد عبد الحليم عطية، (2009)، (د.ط)، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت).
- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرّواية (عربي – انجليزي – فرنسي)، (2002)، ط1، لبنان ناشرون، النّهار للنشر (بيروت).
- ليلى عيون، شطحات أنثى، 2016، ط1، دار الفارابي (بيروت، لبنان).
- محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية المعاصرة (1976 – 1986)، (2003)، ط1، دار صامد (تونس).
- محمد نجيب العمامي، الراوي في السرد العربي المعاصر (رواية الثمانينات في تونس)، (2001)، ط1، دار محمد الحامي (سوسة، تونس).

(2) المجلات:

- عبد العالي بوطيب، "مفهوم الرؤيّة السرديّة في الخطاب الروائي"، (1992)، مجلة فصول، مصر، ع4.

(3) المواقع الالكترونية:

- البراءة والولاية bara'a and wilayah، "ما معنى الشطح عند العرفاء؟"، 17 ماي 2013، 04:45سا https://m.facebook.com/، 14 فيفري 2017، 23:23 سا.